علماء جزر القمر ودورهم في نشر التعليم العربي الإسلامي وتطويره في الجزر

د. عبدالروؤف عبده عمر *

المقدّمة:

دخل الإسلام جزر القمر منذ القرون الأولى للهجرة، وقد ذكرت المصادر أن هذه الجزر عربية في الأصل؛ لأن اليمنيين (معين، وحمير، وسبأ) هم الذين اكتشفوها، واستقروا بها، وأطلقوا عليها اسم «القمر» لظهورها للناظر إليها من بُعْد كأنها جزر معلّقة بالسماء، وذلك لارتفاعها عن سطح الماء[1].

وهذه الهجرات العربية القديمة، والتي استمرت بعد ظهور الإسلام، اشتركت مع الهجرات الإفريقية البانتوية والملايوية في تكوين المجتمع القمري، ولكن حضارة الشعب القمري الإسلامية العربية وثقافته في جزره الأربع كانت أكبر عون لحماية البلاد من مخاطر الثقافة الاستعمارية الفرنسية.

وقد كانت اللغة العربية قبل الاستعمار هي اللغة الرسمية في السلطنات القمرية، إلى جانب اللهجة المحليّة القمرية التي تولّدت من الثقافات المختلفة للشعوب والأمم التي تكوّن منها الشعب القمري[2].

وإن من أبرز الآثار الثقافية التي ترتّبت على توطين الإسلام في جزر القمر، وما صاحبه من انتشار اللغة العربية فيها، ظهور العلماء والشعراء القمريين الذين أصبحوا من أهم العوامل ذات التأثير الإيجابي والتفاعل الحي في مسار الدعوة الإسلامية، وانتشار الثقافة العربية ولغة القرآن في الجزر.

فهؤلاء العلماء والشعراء، بعدما درسوا العلوم الشرعية وفنون الأدب واللغة العربية على أيدي العرب المهاجرين من الدعاة والعلماء، استلموا الراية من أيديهم، وكانوا هم في الطليعة دائماً في حفظ هذا الدين، والقائمين على إشاعته وتعميمه بين الناس، وتحمّلوا تجاه ذلك كلّ المسؤوليات[3] والتبعات كاملة، وقادوا مسيرة التوعية والصمود في وجه التيارات الجارفة المتدفقة من جميع الجهات الداخلية والخارجية، واستطاعوا بتوفيق الله تمكين الإسلام في الجزر، وتحبيبه إلى السكان، وزرع قيمه الحضارية وثقافته الإنسانية ولغته العربية في وجدانهم وحياتهم الروحية والاجتماعية، ليس في جزر القمر فحسب، بل في البلدان المجاورة.

ونلمس ذلك من خلال جهود بعض أولئك العلماء في التعليم والتدريس والتوعية والتثقيف، وعن طريق بعض كتبهم ومؤلفاتهم وإسهاماتهم الأدبية والفكرية، والتي تعكس الموروث الثقافي والحضاري والسلوك الاجتماعي للشعب القمري المسلم، كما أنها في الوقت نفسه تشكّل لبنة قوية في البناء الثقافي والحضاري والاجتماعي للأمة الإسلامية والعربية.

هذا، وقد أنجبت جزر القمر المئات من كبار العلماء والشعراء الذين كانت لهم بصمات واضحة وإسهامات رائعة، وجهود إبداعية وفنية رائدة، بقيت قابعة في أضابير المكتبات الخاصة تعاني الإهمال والنكران.

وسوف نسلط الضوء على بعض أولئك العلماء الأجلاء الذين نحسب أنهم قد أسهموا بفاعلية في انتشار اللغة

(*) رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الوطنية بجزر القمر.

(١) مخطوطة برهان مكيلي، ص ٥.

(٢) مخطوطة برهان مكيلي، ص ٤٧.

(٣) د. حامد كرهيلا: أثر الإسلام في تشكيل السلوك الاجتماعي القمري، دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة، ٢٠٠٨، ص ٢٣٩.

العربيـــة والثقافية الإســـلامية، وخدمة الإســـلام في جميع الجزر، وتشكيل سلوكه الاجتماعي، وإيراد نماذج من إنتاجهم الشعري.

١ - الشيخ أحمد بن سميط (١٢٧٧هـ - ١٣٤٣هـ / ١٨٦١م - ١٩٢٥م)

أصله ونسبه:

هـــو أحمد بن أبي بكر بن عبدالله بـــن عبدالرحمن بن محمد بـــن زين بن ســـميط، من أصل حضرمـــي، كان أبوه العلامة أبوبكر بن عبداللـــه (ت ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م) أول من هاجر إلى جزر القمر من آل ســـميط من شـــبام حضرموت، عام (١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م) تقريباً للدعوة ونشر العلم والاتجار، وأقام مدة طويلة ببلدة «اتســـاندرا» في جزيرة القمر الكبرى، وأقام بها الـــدروس العلمية، وألّف كتابه المشـــهور (الترياق النافع شـــرح إرشاد المسلمين) المنتشـــر في شرق إفريقيا، ويدرس في الكتاتيب والحلقات العلميّة.

مولده:

ولد الشـــيخ أحمد بن أبي بكر ببلدة «اتساندرا» بجزيرة القمر الكبرى في ٥ رجب ســـنة ١٢٧٧هـــ الموافق ١٦ يناير ١٨٦١م، وتوفي أبوه وعمره ١٧ سنة.

تعليمه:

بـــدأ الحبيب أحمد بن أبي بكر تعليمـــه على يد والده، وعلى مـــن كان من العلماء بجزر القمـــر، أمثال العلامة أبي الحســـن الأول جمل الليل وغيره، ثم ســـافر سنة (١٢٩٨هـ / ١٨٨١م) إلى حضرموت، وأقام ببلدة «شـــبام» بين أعمامه وأقاربه وتزوّج بها، وتردّد إلى الحوطة وســـيون والغرفة وتريم وغيرها، ودرس على أيـــدي علماء معروفين، أمثال أحمد بن حســـن بن عبدالله العطاس، وعبدالله بن محســـن السقاف مفتي حضرموت، وعبدالرحمن بن محمد[1]، ثم عاد إلى جزر القمـــر وتزوّج بها، وأخذ يدرس العلوم الإســـلامية والعربية، حتـــى ذاع صيته، وهذا ما جعل ســـلطان زنجبار «برغش بن ســـعيد» يطلبه إلى زنجبار لتولّي القضاء، وذلك سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م حيث اســـتقر بها، وعاش فيها حياة حافلة بالنشاط والعطاء، فازدادت مكانته العلميّة، وتخطّت شهرته حدود شرق إفريقيا إلى أرجاء العالم الإسلامي، حتى إن الخليفة العثماني منحه وســـاماً عثمانياً رفيع المستوى تقديراً لجهوده العلميّة المتميزة.

من آثاره:

ألّف الحبيـــب أحمد بن أبي بكر بن ســـميط عدّة كتب نافعة، طبع ونشـــر أكثرها، منها: (الابتهاج في بيان اصطلاح المنهاج)، يشرح فيه المؤلف المصطلحات الفقهية الواردة في منهـــاج الطالبين للإمام النووي، و (تحفـــة اللبيب)، و (منهج الفضائـــل)، و (منهل الوارد)، و (حاشـــية على فتح الجواد)، بلغ فيها إلى صلاة الجمعة، و (حاشية على النصائح الدينية) تُسمّى (المطالب السنية).

وفاته:

انتقل الحبيب أحمد بن أبي بكر بن ســـميط إلى الرفيق الأعلى في ١٣ من شـــوال عام ١٣٤٣هـــ بزنجبار، بعد حياة حافلة بالعطاء العلمي والتأثير الثقافي - رحمه الله تعالى -.

٢ - الشيخ محمد المعروف (١٢٦٩هـ - ١٣٢٢هـ / ١٨٥٢م - ١٩٠٤م).

أصله:

هو محمد بن أحمد بن أبي بكر الشـــاذلي اليشـــرطي، ينحدر نسبه إلى الشـــيخ أبي بكر بن سالم، وينتهي إلى علي بـــن أبي طالب رضي الله عنه، وأمّا أمّه فهي «موان مكو» بنت السلطان السيد أحمد من آل أبي بكر بن سالم أيضاً.

ولادته وتعليمه:

كانـــت ولادته فـــي موروني (عاصمة جـــزر القمر) عام ١٨٥٢م، فنشأ في حجر والده، وقرأ القرآن الكريم والتجويد، ثم أرســـله أبوه إلـــى زنجبار، حيث تعلّم فيهـــا علوم الحديث والتفســـير والفقه والنحـــو، وغيرها من العلوم الإســـلامية والعربية.

ثم سافر إلى مكّة المكرّمة، وأخذ الطريقة الشاذليّة عن الشـــيخ عبدالله درويش، وعمل على نشرها في شرق إفريقيا من جزر القمر ومدغشقر وموزمبيق.

(١) د. حامد كرهيلا، المرجع السابق، ص ٢٤١.

أعماله:

ترك الشيخ المعروف أثراً واضحاً في المجتمع القمري، وجهوده وأعماله ظلّت بارزة المعالم في سيرة المجتمع القمري، ومن مواقفه الإصلاحية محاربته للعادات المصاحبة لـ «الزواج الأكبر[1]»، ودعوته إلى الامتثال بأوامر الشريعة الإسلامية، كما عمل على نشر قيم العمل والاجتهاد في الكسب درءاً للكسل والتواكل، فاشتغل هو بالخياطة والزراعة، ولم يترك الشيخ محمد المعروف على ما يبدو آثاراً مكتوبة.

وفاته:

توفي الشيخ محمد المعروف بمورونـي عام ١٩٠٤م، وبلغ احترام القمريين وتقديرهم له - رحمه الله - أن أكبر مستشفى في الدولة يحمل اسمه، إذ يُسمّى «مستشفى المعروف».

٣ - الشيخ أحمد قمر الدين (١٨٨٢م - ١٩٧٤م):

نسبه وولادته:

هو أحمد بن عليّ بن مسوما، ولد في بلدة «بوني» بمنطقة «همهامي» شمال شرق جزيرة القمر الكبرى عام ١٨٨٢م، وكان أبوه «عليّ مسوما» الذي هو من أصل بلدة «بنغوا» بجزيرة القمر الكبرى عالماً جليلاً، درس وأخذ العلوم الإسلامية والعربية في زنجبار.

نشأته وتعليمه:

انتقل قمر الدين إلى بلدة «مبيني»، وبدأ رحلته العلميّة في «كتّاب القرآن الكريم» لوالدته، حيث تعلّم القرآن الكريم قراءة وحفظاً، ودرس على والده الأربعين حديثاً، وكتاباً آخر في التوحيد، وكتاب الكفراوي في النحو، ثم أخذه أبوه معه إلى بلدة «بنغوا» ليواصل مسيرته التعليمية عند الشيخ قاسم أحمد، وهو أول معلّم له بعد والديه، ومكث عنده عدّة سنوات، تعلّم فيها الفقه والحديث والتفسير، ثم انتقل بعد ذلك إلى موروني حوالي ١٩١٠م، وهناك دخل المدرسة الفرنسيّة النظامية، وأقبل على دراسة اللغة الفرنسيّة، إلى جانب مواصلة الدراسة العربية والإسلامية في المساجد على يد علماء «موروني»، من أمثال الشيخ ثابت، وحفظ لديه بعض الشعر العربي والمدائح النبوية، كما تعرّف إلى الحبيب عمر بن أحمد بن سميط (١٨٨٦م - ١٩٧٤م)، وأخذ عنه ألفية ابن مالك ومنهاج الطالبين للنووي، كما نال منه عدّة «إجازات» في العلوم الإسلامية[2].

أسفاره:

قام برحلات كثيرة إلى جزر المحيط الهندي، كجزيرة مدغشقر وريونيون وموريشيوس التي درس فيها على يد عالمين جليلين، قيل إنهما على التوالي من المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة، وهما عليّ بن عبدالرحمن الصديقي المدني وعبدالله الراشد النواب، وأخذ علوم البلاغة والعروض من الأول، كما سافر أيضاً إلى بعض الدول العربية كمصر والسعودية، فجاء تكوينه جامعاً بين علوم الدين والأدب واللغة.

ولقد كان لهذه الجولات أثر كبير في تعميق الإحساس بالإصلاح والتغيير عنده، حيث استفاد من الحركات التحريرية والإصلاحيّة، وتجلّت آثار ذلك في حياته العلميّة والدعويّة والعمليّة.

أعماله الإدارية:

تدرّج في السلّم الوظيفي، وتقلّد خلاله المناصب الآتية:

- كاتب عدل بالمحكمة الشرعية في بلدة «تسوجين»، وكان القاضي بها الشيخ عبداللطيف موسى فوم.
- مترجم بمكتب الصحافة في «تناناريف» عاصمة مدغشقر.
- مذيع باللغة العربية في الإذاعة المدغشقريّة.
- نائب محافظ في مكتب المحافظ بتناناريف.
- محافظ أساس (عام).
- محافظ بالدرجة الممتازة.
- مستشار خاص لرئيس مجلس الحكومة في جزر القمر.

نشاطه الدعوي:

اشتغل الشيخ قمر الدين، إلى جانب عمله الإداري، بالتدريس والتثقيف والدعوة إلى الله تعالى، ومما ساعده على

(١) فيه يعيد الزوج مراسم الزواج بعد ٣٠ سنة من الزواج، وهو يمتد لمدة أسبوع، يتخلله الرقص والغناء، وتوزيع الطعام.

(٢) د. حامد كرهيلا، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

ذلك إجادته لعدة لغات، هي العربية والفرنسية والإنجليزية والملغاشية (لغة مدغشقر) والسواحيلية[1].

وخلال فترة وجوده في مدغشقر قام الشيخ قمر الدين بجهود دعوية في الوعظ ونشر الإسلام، ومحاربة التنصير، وخصوصاً في منطقته «طليارا»، وألّف في هذا السياق كتابين باللغة الملغاشية، إلا أن الإدارة الاستعمارية (السلطات الفرنسية) سرعان ما صادرت الكتابين.

كما قام الشيخ قمر الدين بدعوة جميع علماء الجزر في ٢٧ شعبان ١٣٤٥ه / ١ مارس ١٩٢٧م إلى اجتماع بموروني في بستان «بوندوني» للمرحوم الشيخ موني سيد لغرض وضع آليّة لتنمية الثقافة الإسلامية والعربية في الجزر، وقدّم للعلماء الحضور كتابه المسمّى (القاعدة الأحمديّة) الذي نال إعجابهم واستحسانهم، وأشادوا به، وبمبادرته إلى التئام هذا الاجتماع الذي تمخض عنه قيام جمعية «إخوان الهدى»، والتي اختير رئيساً لها، كما كان رئيساً لـ «جمعية علماء المحيط الهندي» التي أسّسها عام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م حتى نهاية حياته.

آثاره:

من أهم آثاره العلميّة ما يأتي:

أولاً: في التوحيد: نظمه المسمّى «القصد الأسنى في أسماء الله الحسنى»، بدأه بقوله:

بدأت بسم الله والحمد شاكراً وداعياً المولى القريب وذاكراً

ثانياً: في النحو والصرف: نظمه المسمّى «المتمّمة لملحة الإعراب»[2].

ثالثاً: في الفقه وأصوله: كتاب في أصول الفقه في المذهب الشافعي باللغة القمرية، إلا أن المؤلِّف توفّي قبل إتمامه.

رابعاً: في الشعر: ديوان يتضمّن أكثر من ٥٠ قصيدة في الوعظ والمدح والهجاء والرثاء (غير مطبوع).

خامساً: في اللغة: (القاعدة الأحمديّة لتلاميذ المدارس القمرية)، وتتكون من ثلاثة أجزاء، وكتاب (القراءة) باللغة الفرنسية لتلاميذ المدارس المتوسطة (غير مطبوع)، وكتاب (مفتاح اللغة الفرنسية بالقمرية في تسهيل معرفة اللغة العربية) لتلاميذ المدارس القمرية (غير مطبوع).

سادساً: في الصحافة: أنشأ صحيفة دورية نصف سنوية، كانت باللغة العربية والقمرية، سمّاها «موانـدو» بمعنى البداية، وكانت تُعنى بالفكر والثقافة والأدب والتربية، وتعكس اهتمامات قمر الدين، وسعة اطلاعه، وتفانيه في خدمة دينه ووطنه.

والمطّلع المتأمّل لمقالات الشيخ قمر الدين وأطروحاته يجد تأثّر الشيخ بما كتبه جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩م - ١٨٩٧م)، وخصوصاً فيما يتعلّق بدعوة الأخير إلى أهمية وحدة المسلمين في ظلّ مبدأ الشورى والتعاون، ونبذ الخلافات، كما يظهر تأثّره كذلك بدعوة الشيخ محمد عبده (١٨٤٩م - ١٩٠٥م)، ومن أبرز معالمها التركيز في أهمية الاعتزاز بالوطن الإسلامي الكبير، ومحاربة الأفكار والاتجاهات المذهبية الضيقة، ومعلوم أن محمد عبده تأثّر هو الآخر بدعوة الأفغاني.

وكان قمر الدين يرى أن الفهم الصحيح للقرآن والسنّة المطهّرة المصدرين التشريعيين للإسلام لا يتأتى إلا بتعليم اللغة العربية، الأمر الذي جعله يهتم اهتماماً كبيراً بتبسيط طرق تعليم اللغة العربية بالنسبة لأبناء جزر القمر.

وتأثّر قمر الدين بالإمامين الأفغاني ومحمد عبده جاء على ما يبدو عن طريق أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم، كالشيخ قاسم أحمد بن أحمد قاسم الذي تخرّج في مدرسة الشيخ فاضل بزنجبار، والحبيب عمر بن أحمد بن سميط، وكلاهما أخذ العلم النافع والدعوة للإصلاح من والد الحبيب عمر، السيد أحمد بن أبي بكر سميط في أثناء وجودهم بزنجبار، وقد ثبت تأثّر الأخير بالدعوة الإصلاحية للأفغاني ومحمد عبده، وكان له علاقات وثيقة[3] بالعالم الإسلامي ومراكزه العلميّة المختلفة.

لقد نظم قمر الدين العشرات من القصائد في شتّى المناسبات الدينية والإخوانية والحضارية، إلا أن عاطفته

(١) د. حامد كرهيلا، المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٢) د. حامد كرهيلا، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٣) د. حامد كرهيلا، المصدر السابق، ص ٢٥٣.

تكون أكثر توقّداً في رثائه لمن حملوا معه مشـــاعل الإصلاح، كالشيخ ســـالم ودعان المتوفّى في غرة رجب سنة ١٣٤١هـ، والذي يقول فيه:

لا حيّ إلا من تفرّد بالبقـاء
فاصبر فكلّ حادثٍ بقضـاء

وواضح جداً اســـتلهامه في هذه المرثية المناخ الحكمي والوعظـــي الداعـــي إلى الرضـــا بالقضاء في شـــعر الإمام الشافعي القائل:

دع الأيـام تفعـــل ما تشـــاء
وطب نفساً إذا حكم القضاء

ولم يكن الشاعر أسير الأغراض التقليدية، بل استوحى بعض أعماله الشـــعرية والأدبية من قضايا العصر، كقصيدته التي جادت بها قريحته بمناســـبة وصول الإنسان إلى سطح القمر، والتي مطلعها:

تبارك الخالق كلّ عالم
حمداً لمن قد كرّم ابن آدم
فضّله فنعم ما قد كرّم
إذ علّم الإنسان ما لم يعلم

ويُعَـــد قمر الدين من رعيل حركة البعث الأدبي في جزر القمر؛ ممن أســـهموا في إيقاظ الشعور الوطني والأدبي لدى الجيل القمري الجديد الباحث عن انتمائه الإسلامي السليم.

وفاته:

توفّي الشيخ قمر الدين عام ١٩٧٤م، ودفن بمدينة مبيني.

٤ - الشيخ الحبيب عمر بن سميط (١٣٠٣هـ - ١٣٩٦هـ / ١٨٨٦ - ١٩٧٦م).

أصله ومولده:

هو عمر بن أحمد بن أبي بكر بن ســـميط، وُلد لأســـرة متديّنـــة في بلـــدة «اتســـاندرا» بجزيرة القمـــر الكبرى في ١٨٨٦/٩/٢٤م الموافق ٢٦ ذي الحجّة ١٣٠٣هـ.

نشأته وتعليمه:

نشأ الحبيب عمر بن أحمد مولعاً بالعلم، وتلقّى تعليمه الأول في الكتّاب ببلدة «اتســـاندرا»، ثم التحق بوالده في زنجبار ولازمه، وأخذ عـــن علماء زنجبار، وفي مقدّمتهم والده، والشـــيخ عبدالله باكثير، ثم أرسله والده في سنّ مبكرة إلى حضرموت، وأقام بشبام، تحت كنف عمّ والده الحبيب طاهر بن عبدالله بن سيمط ورعايته، حيـــث أخذ عنه وعن غيره من علماء حضرموت العلوم الشـــرعيّة واللغويّة، ثم عاد إلى زنجبار فواصل فيها تعليمه عند والده.

عمله الدعوي:

بعد عودة الحبيب عمر بن أحمد بن أبي بكر بن ســـميط إلى جـــزر القمر؛ شـــهدت اهتماماته الدعويـــة والإصلاحية والاجتماعية والتجارية، حتى عام ١٣٥٥هـ، حيث عاد إلى زنجبار بناءً على طلب ســـلطانها للعمل في مجـــال القضاء، ولم يغادر زنجبار إلا بعد قيام الثورة عام ١٩٦٤م، وغادرها إلى الشـــجر بحضرموت، ومنها عاد إلى مســـقط رأســـه بجزر القمر عام ١٣٨٤هـ، حيث استأنف نشاطاته الدعوية ومسيرته الإصلاحية وأعماله الاجتماعية، فعيّن أول مفتي لجزر القمر، وشارك في إنشـــاء «جمعية أبناء الصفا» في «اتساندرا»، و «إخوان الهدى» في موروني، وبنى عدة آبار ميـــاه لقلّة المياه في جزيرة القمر الكبرى، وأفتى بعدم استعمال مائها في غير الشرب.

آثاره:

ومن الآثـــار التي تركها الحبيب عمر بن ســـميط كتاب (النفحة الشـــذية من الديار الحضرمية)، وهو بمثابة سيرته الذاتية، كما ألّف كتاب (هديّة الإخوان لشرح عقيدة الإيمان).

وله عدة أشـــعار، نظمها في شـــتّى المناسبات الدينية والاجتماعية[1]، ومن ذلك مرثيته في الشيخ محمد المعروف التي مطلعها:

معروفنـا معروفنـا
مصباحنا في ليلنا

وقصيدته الترحيبية التي مطلعها:

أيا من تشـــرف هـــذا المقـــام
بهـم وســـما رفـــعة واحترام
عليكم من الله أزكى السلام
ورحمته وما استهل الغمام

(١) عبدالقادر بن عبدالرحمن بن عمر الجيد: نبذه من حياة الإمام العلامة الحبيب عمر بن سميط، ص ٥، دار الطابعة الهند - ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

وفاته:

وتوفي الحبيب عمر بن أحمد بن سميط في جزر القمر، ودفن في مسقط رأسه عام ١٩٧٦م.

ويُعَـد الحبيب عمر مـن رواد الحركة السـلفيّة في جـزر القمر، حيـث حمل لواء الإصـلاح الديني والاجتماعي والتربوي، ودعا إلى الفهم الصحيح للدين الإسلامي.

٥ - الشيخ السيد محمد بن عبدالرحمن (١٣٣٠هـ - ١٤١١هـ / ١٩١٢م - ١٩٩٠م).

نسبه:

هو محمد بن عبدالرحمـن بن أحمد الملقب بـ «موينى مكو» بن الشيخ سالم بن ناصر بن أحمد محضار بن عيدروس بن أبي بكر بن سـالم، ينتهي نسـبه إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

مولده:

ولد سـنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م في بلـدة «هاهيا» بجزر القمر الكبرى، في أسرة متديّنة.

تعليمه:

تلقّى محمد بن عبدالرحمن تعليمه الأول في المبادئ العربية والعلوم الشـرعية وحفظ القرآن الكريم في كتّاب والده، ثم سافر إلى زنجبار ودرس على يد علمائها وشيوخها في شـتّى العلوم العربية والإسلامية، ما أهّله ليكون واسع الثقافة والاطّلاع، متعـدّد المواهب، متنوّع العطاء، مرهف الحسّ، ذا شاعرية متدفّقة.

أعماله:

عاد سـيد محمد بن عبدالرحمن إلى جزر القمر عام ١٩٣٩م، أي قبل وقوع الانقلاب في زنجبار، فأسّس مدرسته التي سـمّاها «المدرسة السلفيّة» بموروني، ثم عمل مدرساً وقاضيـاً وواعظاً، ثم مفتيـاً لجمهورية القمـر الاتحادية الإسـلامية بعد وفاة الحبيب عمر بن سميط، وكان عضواً في مجمع الفقه الإسـلامي، وأسـهم مع قمر الدين وغيره مـن علماء جزر القمر في إنشـاء «جمعية العلماء في جزر القمر»، و «إخوان الهدى»، كما أسّـس عام ١٩٨٥م «الرابطة الخيريّة الإسـلامية»، وكانت له مشاركات سياسية وثقافية واجتماعية، وحلقات إذاعية في الوعظ والإرشـاد وتفسير القرآن الكريم.

آثاره:

ترك سيد محمد عبدالرحمن حلقات مسجلة في تفسير القرآن الكريم تُبث يومياً في الإذاعة الوطنية.

كما ألّف عدة كتب، منها (الطريقة المرضية لأداء صلاة الجمعـة) (مخطوطة)، وكتاب (تحذيـر البلاد من المضلات الإلحاديـة) (مخطوطة)، و (النصوص الشـرعية في إثبات الملكية الفردية) (مخطوطة).

هـذا إلى جانـب مجموع فتـاواه في قضايـا مختلفة (مخطوطة)، وعدة مقالات، منها: «القول القيّم مما يروي ابن تيمية وابن القيم».

وله مشـاركات شـعرية في عدة أغراض ومناسـبات مختلفة، ومن ذلك مرثيته في الشيخ سالم بن عامر بن بويح، والتي مطلعها:

مصاب عظيم في معاهدنا تربى
فظلت به تبكي المدائن والقربى

وقصيدة مدح الملك فيصل بن عبدالعزيز، ومطلعها:

سلام على حامي الحمى والمشاعر
وأسمى تحيات أتت من مشاعر
مليـك إذا عـد الملـوك مقـدم
عليهـم جميعـاً بالعلا والمفاخر

وقصيدته في تهنئة السـيد عمر بـن عبدالله آل الشـيخ أبي بكر بن سـالم بمناسـبة قدومه إلى جزر القمر:

القطر مبتهج بكم بسام
يهنئكم فيه أكابر وكرام[1]

وفاته:

وافتـه المنيّة في مستشـفى بباريس فـي نوفمبر ١٩٩٠م، ونقـل جثمانه ليدفن في جزر القمر - رحمه الله رحمة واسعة -.

(١) د. حامد كرهيلا، المصدر السابق، ص ٢٦٠.

٦ - الشيخ السيد محمد شريف أحمد (١٣٤٩هـ - ١٤٢٧هـ / ١٩٣٠م - ٢٠٠٦م):

نسبه وولادته:

هو محمد شريف بن أحمد بن شيخ مؤمن بن عبدالله أحمد، وُلد في بلدة «إكوني» عام ١٩٣٠م، ويتصل بأسرة «موينيبا حسن»، وهي أسرة متديّنة من الأسر المشهورة في جزر القمر.

نشأته وتعلميه:

تربّى السيد محمد شريف أحمد تربية طيبة، فقد كان سيد عبدالله المطلب الذي تزوّج أمّه يحبّه حبّاً شديداً لما رأى أنه قادر على مواصلة الدراسة، وكان يمنعه الخروج من البيت إلى مكان بعيد خشية أن تتسرب إليه أخلاق سيئة من أقرانه.

وفي السنة الخامسة من عمره أرسلته والدته إلى كتّاب قرآني، ثم درس وتعلّم، فحفظ على يد الشيخ موسى نازي بعض السور القرآنية، ثم أخذ مبادئ اللغة العربية كالنحو، ودرس الفقه والتفسير والحديث والتوحيد، وكان يشارك في حلقات المساجد بين المغرب والعشاء، ويجالس بعض المشايخ، كالشيخ موني حلوة والشيخ مماد مادي اللذين أخذ عنهما بعض المختصرات الفقهية وتربية الأخلاق الفاضلة.

وفي الرابعة عشرة من عمره سافر السيد محمد شريف أحمد إلى زنجبار لطلب العلم، فالتحق بمدرسة باكثير بشرق إفريقيا، وكانت هذه المدرسة مشهورة آنذاك بمنهجها وعلومها وأساتذتها الأجلاء، وقد فتحت هذه المدرسة أبوابها لجميع طلبة العلم من أنحاء العالم ليلتحقوا بها.

وبعد خمس سنوات التحق الشيخ بمدرسة أخرى، وتعلّم بعض اللغات الأجنبية كالإنجليزية، كما درس فيها اللغة الفرنسية والعربية والسواحلية، حتى حصل على الشهادة المتوسطة عام ١٩٥٥م[١].

ولم يكتف السيد محمد شريف بهذا القدر من العلم، إدراكاً منه لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه : ١١٤]، واقتداءً بالسلف الصالح الذين جعلوا العلم جهاداً وفضّلوه على سائر الصنائع.

وبعد أن حصل الشيخ محمد شريف على الشهادة المتوسطة التحق بالمعهد الثانوي الإسلامي، وبعد أربع سنوات حصل على الشهادة الثانوية، وبعدها حصل على منحة الدراسة في دولة السودان، حيث التحق بمعهد التربية الذي يُسمّى «بخت الرضا»، ودرس فيه حتى نال شهادة التربية مع مرتبة شرف.

مهمّته بالخارج:

بعد حصول السيد محمد شريف أحمد على شهادة التربية في دولة السودان من معهد «بخت الرضا» عاد إلى زنجبار، ولحسن أخلاقه وعلوّ معارفه أصبح مشهوراً ومحبوباً، وعرف كثيراً من العلماء والحكام، وقد سهّل له ذلك أن ينال منصباً علمياً مرموقاً، حيث عيّن مفتشاً للغة العربية في المدارس التعليمية كمدرسة «عُلِمُ» بزنجبار.

وفي سنة ١٩٦٤م حصلت زنجبار على استقلالها من الاستعمار البريطاني، ما جعله يدرك قيمة الاستقلال والحرية الفعليّة، فقرّر الرجوع إلى مسقط رأسه جزر القمر لمشاركة أبنائها في المطالبة بالحرية والاستقلال.

رجوعه إلى جزر القمر:

بعد عودة محمد شريف إلى وطنه جزر القمر؛ عمل بمعهد سيد محمد شيخ الثانوي بموروني عاصمة جزر القمر مدرساً للغة العربية التي كانت مهملة في عهد الاستعمار، فعمل جاهداً على أن يصبح لهذه اللغة أهمية ومكانة لدى الشعب القمري، فكان من الأوائل الذي وضعوا أسس العناية بلغة القرآن الكريم، وعمل على تطوير التعليم الإسلامي، والعربي، والتربية القمرية، بدروسه التعليمية وحلقاته الدينية والتربوية، وخطبه الإرشادية، فذاع صيته، وتتلمذ على يديه عدد كبير من الطلبة الذين أصبحوا اليوم أساتذة ومسؤولين كباراً.

وقد لازم الحبيب عمر بن سميط[٢]، والسيد عمر

(١) انظر: عيسى محمد ومحمد عبدالحميد: الأستاذ محمد شريف حياته وثقافته آثاره، بحث لنيل دبلوم للمدرسة القومية للتعليم العالي (١٩٨٩م - ١٩٩٠م).

(٢) أول مفتي الأكبر في جزر القمر.

بـــن عبدالله المعـــروف بـ «مونـــي براكة»، والســـيد محمد عبدالرحمن، والسيد طاهر بن سيد مولانا[1]، والسيد أبوبكر بن ســـيد عبدالله، وغيرهم من العلمـــاء والمصلحين الذين أسّسوا حركة الوعي الإسلامي والإصلاح الاجتماعي في جزر القمر حديثاً.

أسفار محمد شريف:

بعد أسفاره لمواصلة الدراسة في زنجبار والسودان رجـــع إلى وطنه جـــزر القمر، ولمّا أمضـــى تقريباً أربع ســـنوات قام برحلة إلى جزيرة مدغشقر التي يوجد فيها قبر أبيه، وأخذ يتجوّل حول مدن مدغشـــقر، وزار مدينة «ديغو» ثم «تناناريف»[2].

وأخيراً انتهى بجولته وزيارتـــه إلى مدينة «ماجنغا» التي يعيش فيها أكثر المواطنين القمريين، وقد اشـــتغل في المدة التي مكث فيها هناك بدعوة الناس إلى الإسلام وإلى العلم والتربية والإرشاد.

وفي عام ١٩٧٦م قام في عهد الرئيس علي صالح[3] بزيارة رسمية مع وفد رفيع المستوى إلى موريتانيا، وذلك لحضور المؤتمر الإسلامي، والذي كان من أهدافه بحث سبل وطرق نشر الإسلام في القارة الإفريقية.

ومن خلال هذه الزيارة اســـتطاع الســـفر إلى بعض الدول، كالمغرب ومصر وفرنسا وإيطاليا، وفي جمهورية مصـــر العربية انتهـــز هذه الفرصة الذهبيـــة مع الوفد المرافق لـــه بتقديم طلب إلى الحكومة لمســـاندة جزر القمر في الانضمام لجامعة الدول العربية.

وفي هذا العام نفســـه ســـافر محمد شريف أيضاً إلى جمهورية مصر العربية للمـــرة الثانية لبحث تطوير العلاقات بين جزر القمر والدول الإســـلامية، وأصبحت جزر القمر فـــي هذا المؤتمر عضواً فـــي رابطة العالم الإسلامي، ثم واصل جولته مع الوفد المرافق له المكوّن من عبدالله محمد تاج الدين بن مســـعود ومحمد حسن مشنغامي وغيرهم من المسؤولين الآخرين في الدولة إلى شرق إفريقيا، وكان آخر ســـفره إلى جمهورية مدغشقر ليجدد العلاقات بين الدولتين، وكان من أهداف أســـفاره أن يشـــارك بفعالية في تطوير علاقات المجتمع القمري في الخارج، ومع العالم الإسلامي بصفة عامة.

أخلاقه وأدبه:

إن حياة محمد شريف مدرسة تفيض بالعطاء والعلم والأدب، وكان قـــدوة في الأخـــلاق والفضيلة؛ فقد كان متأسياً بالرسول صلى الله عليه وسلم، متمسكاً بسيرته، ومهتديـــاً بهديه، من هنا نجده قـــد امتاز بالأدب والخلق الرفيع، فمعرفة ســـلوكه وفهم منهجه ومســـلكه الفقهي والعقدي مهم جداً؛ لأنه ما كان داعياً للناس بلسانه فقط بل كان قدوة بمنهجه وسلوكه.

ثقافته وعلمه:

من ذلك معرفته بعقيدة التوحيد، وما يتفرع عنها من أحكام الإسلام وقوانينه وشـــرائعه المستنبطة من كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا كان العلم عنده أساس كلّ شيء، من معرفة الحلال والحرام، والعبادة على الوجه الصحيح، والدعوة إلى الله علـــى بصيرة، وتربية الأمة علـــى طريق الهدى والرشـــاد، وقد قال الله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر : ٢٨]، والحديث النبوي الشريف يؤكّد لنا أن «العلماء ورثة الأنبياء»[4].

كان الشيخ محمد شريف من كبار علماء جزر القمر في عصره، أفاد أبناءها بعلومه وعلمه الذي لا يقف عند المعلومات الدينية فحسب، بل شمل علوماً كثيرة كالعلوم المنطقية والأدبية وغيرها[5].

العلوم الدينية:

حفظه للقرآن الكريم: بدأ الشـــيخ محمد شـــريف بحفـــظ القرآن الكريـــم في الكتاتيـــب القرآنية على يد

(١) مفتي الأكبر حالياً.

(٢) عاصمة مدغشقر، وسكانها ١٠٠٠٠٠٠ نسمة تقريباً.

(٣) رئيس جزر القمر ١٩٧٠ – ١٩٧٨م، قتله «بوب دينايز» ومرتزقة في مايو ١٩٧٨م.

(٤) رواه أحمد من حديث أبي الدرداء، رقم ٢١٧١٤، وغيره.

(٥) محمد عبدالحميد عيسى محمد، المصدر السابق، ص ٢٨.

الشيخ موسى نازي، ولم يزل يحفظ القرآن طوال دراسته، حتى حفظ من القرآن وتفسيره الكثير.

التجويد: اهتم الشيخ محمد شريف أحمد بدراسة التجويد لكي يحسّن قراءته، فدرس التجويد في مدرسة باكثير، وكذلك في المعهد الإسلامي بزنجبار، وكان يقرأ القرآن قراءة تثبُّت امتثالاً لأمره تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزّمِّل : ٤]، واقتداءً بالرسول ﷺ.

وكان الشيخ محمد شريف يدرس ويعلّم التجويد لتلاميذه ليدربهم على قراءة القرآن قراءة صحيحة، برواية حفص عن عاصم.

تفسير القرآن: وكان يطلع على أكثر من تفسير، منها: تفسير جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، وجامع الأحكام للقرطبي، والصاوي، والزمخشري.

ومنهج تفسيره: كان يشرح الكلمات الصعبة، ثم يشرح إجمالاً، ثم يستنبط بعض الأحكام الفقهية واللغوية.

علم الحديث: كان الشيخ محمد شريف مهتماً بهذا الفن العظيم، وقرأ صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، كما حفظ أكثر من مائتي حديث.

علم الفقه: لم تعرف جزر القمر إلا مذهباً واحداً في الفقه، هو مذهب الإمام الشافعي، وذلك ما جعل الشيخ محمد شريف وكلّ فقهاء جزر القمر يهتمون بدراسته.

فتعلّم الشيخ محمد شريف (الرسالة) في علم أصول الفقه، و (الأم) في الفقه، ثم اشتغل بمعرفة مؤلفات أئمة مذهبه كالإمام النووي والغزالي، ولم يزل محمد شريف ينشر معارفه، لا سيما معرفته الفقهية لدى تلاميذه، سواء في مدرسة الفتح أو في المساجد، وكان يدرس للأطفال بعض المختصرات الفقهية، كالمقدمة الحضرمية وبداية الهداية وغيرهما.

علم التوحيد: كان من منهج الشيخ محمد شريف أن عقيدة التوحيد لا تكون نقية صادقة إلا إذا آمن المسلم بتوحيد الله في كلّ شيء، وعلى وجه التحديد يجب توحيده في الأمور الآتية:

١ - توحيد الله في ذاته: وهو منطلق التوحيد، وعلى أساسه تقوم أبنية العقيدة.

٢ - توحيد الله في صفاته: فهو واحد، يتصف بالغنى والعلم والقدرة والإرادة؛ لذلك اختص بالأسماء الحسنى ووصف نفسه بها: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠].

٣ - توحيد الله في الأفعال: فهو وحده يخلق ويرزق ويحيي ويميت، وهذا الكون والحياة لا يستطيع أن يتصرف فيهما غيره عز وجل، ولا يكون حدث إلا بإذنه سبحانه.

٤ - توحيد الله في الألوهية بالعبادة: أي أن كمال توحيد الله الإخلاص له في العبادة.

كلّ هذه الأمور التوحيدية التي ذكرناها قد ضبطها الشيخ محمد شريف، وكان يدرسها لطلابه، ويعمل بها في حياته، ويظهر إخلاصه في شخصيته الحسنة.

العلوم اللغوية:

درس الشيخ محمد شريف اللغة العربية طول دراسته، وما يتعلق بها من العلوم كالنحو والصرف والبلاغة والأدب.

وقد بدأ دراسة النحو في مدرسة باكثير في زنجبار بشرق إفريقيا، كما درس جميع المواد اللغوية في الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية، وكان يدرس تلاميذه المواد اللغوية في مدرسة الفتح ومعهد سيد محمد شيخ وغيرهما.

علم التاريخ:

درس الشيخ محمد شريف تاريخ العصرين، الجاهلي والإسلامي عند العرب، وهذا ما أعطاه نظرة ناقدة لمقارنة ذلك العصر بالعصر الإسلامي.

آثاره:

أما آثار الشيخ محمد شريف فيمكننا القول بأنه ترك آثاراً طيبة، وأن المجتمع القمري يجني من ثمار جهوده راضياً مغتبطاً، فتلاميذه الذين رباهم يساهمون اليوم في تقدّم المجتمع القمري ورفعته في المجالات المختلفة.

ومن آثار محمد شريف أحمد تأسيس «مدرسة الفتح»، وهي أول مدرسة نظامية لنشر اللغة العربية،

ولمّا رجع محمد شـريف إلى «إيكوني» مسـقط رأسه وجد أهالي بلدته قد شرعوا في بناء نادٍ للشباب للترفيه وحفظ الآلات الموسـيقية والتدريب عليها، وكان المبنى على وشـك الانتهاء، فحاور الأهالـي برفق، وطلب منهم للمصلحة العامـة ولمصلحة دينهم تحويـل النادي إلى مدرسـة، فرحّبوا بالفكرة، وكانت هذه الخطوة المباركة بحق نقطة تحوّل وانطلاق إلى نشر اللغة العربية ومبادئ الدين الإسـلامي الحنيف لأبناء جزر القمر بصفة عامة، وأبناء جزيرة القمر الكبرى بصفة خاصة.

مؤلفاته:

اهتم بالكتابة في بعض مشكلات وطنه من الناحية التقليدية، والناحيـة التربوية، وتأخّر المرأة القمرية بصفة خاصة، فدفعه ذلك إلى كتابة مؤلفات باللغة المحليّة (مخطوطة)، لأنه في ذلك الوقت كان كثير من القمريين لا يحسنون الحديث باللغة العربية، فألف كتاباً بعنوان (التربية الإسلامية) في العام ١٩٧٣م، وكتاباً آخر بعنوان (مبابكتسُ يلوا) أي (الأب لا يفهم).

وفاته:

أصيب الشيخ محمد بمرض فأرسل إلى فرنسا عدة مرات للعلاج، وفـي المرة الأخيرة توفي ليلة الجمعة ٢٤ من جمـادى الثاني ١٤٢٧هـ الموافـق ٢١ تموز / يوليو ٢٠٠٦م في باريس عاصمة فرنسا، ونُقل جثمانه الطاهر إلى جزر القمـر، ودفن يوم الخميس غرة رجب ١٤٢٧هـ الموافق ٢٧ من تموز / يوليو ٢٠٠٦م.

خاتمة:

مهما يكن مـن أمر؛ فإن الباحث المتتبع لمسـيرة التعليم العربي والإسلامي في جزر القمر يلاحظ بوضوح تام مدى الجهد والعمل الذي قدّمه علماء جزر القمر في سبيل نشر العلم والمعرفة في أوساط القمريين.

ويمكن بذلـك تحديد أهم الجهود والملاحظات في النقاط الآتية:

أن ما قدّمه العلماء في خدمة اللغة العربية والتربية الإسـلامية في جزر القمر أكبر كثيـراً مما هو معروف بين الناس.

أن جهـود علماء جزر القمر لـم تتوقف عند حدود الجـزر القمرية الأربع، بل تجاوزتهـا إلى جزر المحيط الهندي، مثل مدغشـقر وموريشيوس وسيشل، كما شمل ذلك الجهد الشـواطئ الشرقية للسـاحل الإفريقي في مناطق دار السـلام وممباسـا وزنجبـار، ووصلت حتى سـواحل الصومال، بل توغلت إلى أنحاء كثيرة من شرق إفريقيا ووسطها.

أن مـا قدّمه علماء جزر القمـر من جهود مخلصة في دعم حركة الدعوة والتعليم؛ شـكّل ملاذات أساسية ومصـدات قوية ضد حركـة الفرنسـة والتغريب التي اجتاحت الجزر إبان الحقبة الاستعمارية.

أن هذه الجهود قد سـاهمت بشكل كبير في حفظ الدين والهوية الإسلامية لشعب جزر القمر.

وأخيراً:

فإن الباحـث يرى أن هذا العمل الـذي قدّمه دون المطلـوب، وأن الحاجـة ماسّـة للمزيد مـن البحوث والدراسـات للوقوف على جهود أولئـك العلماء، هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع:

١ – د. عبدالعزيـز غيـم / جزر القمـر، الأزهر الشريف، مطبعة المصحف الشريف، القاهرة ١٩٩٢م.

٢ – ياقـوت الحمـوي: معجم البلـدان، دار صادر بيروت، ١٣٧٦ه / ١٩٥٧م.

٣ – د. محمـد ذاكر السـقاف: جـزر القمر عبر العصور، دار القناعة للكتابة والطباعة، موروني ١٤٢٣هـ / يوليو ٢٠٠٣م.

٤ – شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، مكتبة الحلبي، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

٥ – كارلتومن ـ إدوارد: السـلالات البشرية، ترجمة محمد السيد غلاب.

٦ – السيد رجب حرزاز: إفريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي، دار النهضة العربية، ١٩٦٨م.